التشوء الخالق

قطعة من فلسفة برغسن

لحنا قبلان

ولد هنري برغسن في باريس سنة ١٨٥٩ . فهو اليوم مناهز الثمانين من عمره وكان في صباه دارساً مجيداً بدا عليه من مخايل النجابة والذكاء ما أهّله للفوز بجميع جوائز المدرسة . ولكنهُ تخصص في درس الطبيعيات والرياضيات . فأوفدتهُ مواهبهُ الخارقة ، وجيهاً لوجيه ، امام الميتافيزيكا الكائنة وراء كل العلوم . فمرج على درس الفلسفة . ولذلك دخل « ايكول نورمال سوبريير » او مدرسة العلوم العليا سنة ١٨٧٨ . وتخرّج منها سنة ١٨٨١ فتعيّن للحال معلماً للفلسفة في كوليج رولان . فانتقل سنة ١٨٩٨ الى كرسي الفلسفة في « كوليج دي فرنس » . وظلّ في ذلك المنصب حتى استقال عنهُ مؤخراً

مؤلفاته

اصدر برغسن سنة ١٨٨٩ اوّل مؤلفاته وهو كتاب « الزمان وحرية الارادة » . وسنة ١٨٩٦ اصدر مؤلفاته « وهو كتاب « المادّة والذاكرة » . وسنة ١٩٠٧ آية فنّه ، وهو كتاب « التشوء الخالق » . وقد جعله هذا الكتاب بين عشيّة وضحاها نبراس الفلسفة وزعيم اساطينها فهو الفيلسوف الاوحد في فرنسا بعد « ديكارت » ، وفي كل اوربا بعد « كنت » . واصدر في سنة ١٩٣٥ آخر مؤلفاته . وهو كتاب « اصلا الديانة والاخلاق »

كان برغسن في اول نشأته سبنسريًّا صميماً . يقبل نظرية التشوء وهي محور الفلسفة المركّبة ، التي بسطها سبنسر في مؤلفاته الضخمة . على انهُ كان كلما اعاد قراءة تلك المؤلفات يشعر حماسةً وجدّةً في قضايا ثلاث

الاولى : في المادة والحياة . الثانية : في الجسد والعقل . الثالثة : في الحتمية والحرية

كانت تجارب « بستور » البكتريولوجية قد قضت على نظرية التولّد الذاتي . وبعد مرور مائة سنة ، اجريت في غضونها الوف من التجارب ، لم يتقدّم الماديون خطوة واحدة في حلّ معضلة « اصل الحياة » . ومع أن الدماغ والعقل مترابطان لم يزل نوع الترابط بينهما سرًّا غامضاً

فبرز هنري برغسن في وسط العجاج المتصاعد في جو اوربا بين الآراء المتناحرة . وكان ثائراً على الآراء الحسية المادية . وخلاصة فلسفته : « ان هذا الكون نظام بشتى كاملاً معرفتنا اياه ناقصة ، بل هو صيرورة او استمرار ، ومهمة الفلسفة الرئيسية ان تعلن ما يتعذر علنهُ العلم وهو ادراك معنى الحياة » . فمبدأ الحياة . ذلك التيار الفياض الذي يدفع ويبثر ويطور حركة الحياة بلا انقطاع ، ذلك المبدأ — élan vital — قد انشأ العقل ليتعرف عالم المادة الصديق الحياة

لست اجهل ان فلسفة برغسن اوسع من ان تجمع شوارِدها مقالة واحدة . ولا سيما بقلم رجل لم يدخل الفلسفة من أبوابها . على اني أورد في ما يلي ملخص قطعة من كتابه « النشوء الخالق » ، عنوانها « معنى النشوء » The meaning of evolution وردت في ص ٢٦٤—٢٨٦ من ذلك الكتاب . ولو ترجمت بحروفها الى اللغة العربية لشغلت ما لا يقل عن عشرين صفحة من مجلة المقتطف . واليك خلاصتها مع التبسيط والترضيح تقريباً لمتناول غير الاختصاصيين

***

ان محرّك الحياة الاصلي في حاجة الى الخلق او الابداع . تعترضهُ في سبيلهِ المادّة . لكنهُ يتحكّم بها ، ويبثّ فيها اعظم قدر ممكن من الحرية . وكيف ذلك ؟

الجواب : يمكن وصف الحيوان الراقي وصفاً عامًّا ، بأنهُ حاصل على الأعصاب المحرّكة المتكفلة بأفعال الهضم والدوران والتنفس والتمثيل . ووظيفة هذي الأجهزة تنقية الجسم العضوي وترميم ما تهدّم من خلاياهُ ، ووقاية المجموع العصبي ، وإمدادهُ بالنشاط الذي يتفقهُ الجسم في الحركة . وتتوقف زيادة تركيب الاجسام العضوية على ضرورة تركيب المجموع العصبي . والترابط بين أقسام الجسم العضوي ، بجعل العضو الواحد متأثراً بما يحدث للعضو الآخر . فيستمر التركيب فيه الى ما لا نهاية لهُ . وحفظ الجسم منوط بالمجموع العصبي فهو القوة الوازعة في مملكة الحيوان

ويقوم تقدُّم المجموع العصبي بارتقاء العملية الاوتوماتيكية ، والعملية الاختيارية . تمدُّ أولاهما الثانية بآلة ملائمة . ففي الجسم العضوي محركات جمة ، في التحاعين الشوكي والفقاري ، توقّع الاشارة للانطلاق في العمل الملائم . وهي تستخدم الارادة في بعض الاحيان لتعيين وقت الانطلاق ، واختيار منهج الميكانيكا . وكلما زاد عدد الميكانيكات في الجسم العضوي زاد الدماغ ارتقاء . وذلك الارتقاء هو زيادة الضبط والتنوُّع والفاعلية والاستقلال . فالجسم العضوي بهذا الاعتبار كآلة تعدّل ذاتها في كل فعل جديد ، كأنها مصنوعة من المطّاط . وقد وجدت هذي الصفة في « الاميبا » (أدنى طوائف الحيوان) قبل نشوء المجموع العصبي . وعملها حينذاك كعمل الجنين ، مستغنية عن التركيب الذي في أعلى طوائف الاحياء . اذ لا حاجة هنالك الى عناصر مساعدة ، تتحوّل محركات ، عملها توزيع النشاط

تتألف احوال الحياة في أدنى طوائف الحيوان وفي أرقاها من نوعين من الافعال رئيسيين ، وهما
١ — احراز مدد الطاقة ٢ — انفاق ذلك المدد بواسطة مادة لدنة في جهات لا تُرى
ومصدر تلك الطاقة الطعام الذي تمّ هضمه . والطعام المهضوم نوع من المتفجرات ، التي تنتظر الشرارة لاطلاق ما فيها من النشاط . وأصل الطاقة الاول هو الشمس ، تناولها منها النبات وذخرها في أجزائه . ثم تناولها الحيوان من النبات . تخزّن تلك الطاقة في الاجسام العضوية كما تُخزّن المياه في الاحواض ، والكهربائية في البطاريات . وكل ذرّة من الكربون تمثل قدراً من الماء ، او حبلاً من المطاط ، يربطهُ بالاوكسجين الذي في الحامض الكربونيك . وهذا النشاط المخزون مستعد للانطلاق لدى كل سانحة . فكل حياة ، نباتيّة او حيوانيّة ، هي كناية عن جهد يراد به جمع النشاط ثم اطلاقه . ذلك ما يرغب المحرك في المادة في اتمامه . ولا ريب في فوزه لو ان قوّته غير محدودة ، او ان وافاه المدد من الخارج . على ان ذلك المحرّك محدود القوّة ، فيستحيل ان يتغلّب على جميع العقبات . وان قوّتهُ عرضة للمقاومة والتمزّق والتقهقر . ونشوء العضويات هو عبارة عن صدّ ذلك التراجع . واوّل مشاهد ذلك الحادث ، هو ما لنا النبات والحيوان ، المتبادلا التعاون دون سابق اتفاق بينهما (خلافاً للنظرية الحتمية) . لان النبات يجمع الطاقة لا لاجل الحيوان ، بل لاجل ذاته . ولكنهُ في واقع الامر ، ينفق النفيل مما ذخره على ذاته . ويحتفظ بالكثير الذي يتناوله الحيوان . ولا تمكن موازنة قوّتي الخزن والانفاق في الجسم العضوي فيرجح الخزن في بعضها ، والانفاق في البعض الآخر ، دون تدخل قوة خارجية . بل يتم ذلك الفعل بالميل المزدوج الموروث من المحرك الاصلي

من هنا كان انشعاب النشوء في فرعين اصليين ، هما النبات والحيوان وكلٌّ من هذين الفرعين يتصرّف كأنّ حركة الحياة تنتهي عنده ، لا انها مجتازة فيه ، فبذاته يُعنى لا بغيره ، ولاجلها يحيا ويعمل لا لكائن آخر . لذلك اصطدم التنازع في عالم البيولوجيا (على ما هو مرسوم في تفكير شوبنهور ونظرية داروين) . وليس المحرك الاصلي المسؤول عن ذلك التنازع

ليس من الضروري توقف الحياة على الكربون ، انما الضروري خزن الطاقة الواردة من الشمس . ومن الممكن ان يتم ذلك بغير ما ألِفناهُ من الصور . وعليه فقد تكون الحياة في الكواكب في غير مجراها في سيّارنا هذا . ومن الخطأ الفاضح حصر الحياة في الكرة الارضية . وليس من الضروري حصر الحياة في الاجسام العضويّة . فان جمع الطاقة وانفاقها غير محصور في اختبارنا . فان الحياة سيكولوجيةٌ في جوهرها ونظامها . فهي غير فضائية كالمادة (اي انها لا تشغل حيّزاً) فان المادة والفعل مسبوكان في قالب الفضاء . ففي الفضاء وحدة وجمع . فالوحدة هي النقطة الهندسية ، والجمع هو النقط متجاورة (وخلاصة تفكير دمقريطوس ان المادة والفضاء هما كل ما في

الوجود) . اما طبيعة النفس فليست كذلك . « فانا » — سيكولوجيًّا — وحدة في جمع ، وجمع في وحدة . فالجمعية والفردية مظهرا شخصيتي . هذي هي الحياة عامة فهي كالشعر واحداً في معناه ، متعدداً في ابياته وكلماته وحروفه . وهنالك توازن بين الفردية والجمعية . فاذا برز ميل في الحياة الى الفردية قابله ميل الى الجمعية . واذا برز ميل الى الجمعية ، قابله ميل الى الفردية . أعني انهُ متى نشأت في الحياة جمعية مالت الى الانقسام فينقسم الواحد الى فروع ، كما في النبات ، وفي الهيئة الاجتماعية حيث نرى الحزب الواحد ، او المذهب الواحد ، قد انقسم الى أحزاب او فروع . فتنشىء الهيئة الاجتماعية فرديات تحت جمعيتها ، وجمعيات فوق فرديتها . فالمديرية مثلاً جمعية بالمقابلة مع المراكز ، وفردية بالقياس الى الدولة . وهذي في دورها فردية بالقياس الى البشرية وجمعية بالمقابلة مع المديريات

والفرع في الشجرة جمعية باعتبار الاوراق ، وفردية باعتبار الاصل . وفي الخلايا الجسم العضوي جمعية بالنسبة الى الذرات التي تؤلفها ، وفردية بالنسبة الى الجسم الذي تؤلفهُ

في اصل الحياة شعور خافق ، تؤلف شذراته المتراجعة المادة . اما الشذرات المستمرة في وجهتها دون تراجع فتؤلف العقل . فالحياة صاروخ ، ينام ويستيقظ . فينام حيث تقضي على الحياة بالاوتوماتيقية . ويستيقظ حيث يمكن الاختيار والعمل الحر . ويتناسب ذلك الاختيار في الحيوانات الدنيا مع المحرك الاصلي . اما في الانسان فيتناسب مع المجموع العصبي ، الذي فيهِ المحرك والحساس . فالمكان الحي مركز عمل فيهِ قدر من الامكان داخل الى الدنيا . يتفاوت ذلك القدر في الافراد وفي الانواع . وهو يبدو في حركات الاعصاب كما انهُ صادر من الدماغ . وهنالك نسبة بين درجة التعقد والتركيب في المجموع العصبي وبين درجة الاختبار والمقدرة على الادراك والعمل . والحقيقة ان الشعور الكوني المتصل بالنفس هو غير صادر من الدماغ (اراد بالشعور الكوني هنا غير الشعور الشخصي الذي ينحصر في الفرد الواحد من البشريات . فهي فلسفة برغسن يشبه الشعور الكوني سحابة تملأ الفضاء . وقد تقسم ذلك الشعور ، كما تنقسم السحابة فكانت انسانه نقطاً في الشعور الشخصي)

ولكن ذلك الشعور الشخصي ، المنفصل من الشعور الكوني يطابق الدماغ مطابقة ماء النهر بجراه . مع أن الماء ليس من المجرى . ولا هذا من ذاك . فلا يجوز الحكم على الانسان والحيوان برجحة العقل . لان الفرق بينهما هو بالكيف لا بالكم فقط . والمشابهة الدماغية بينهما هي دون ما توهم كثيراً . (هنا معارضة صريحة للمذهب المادي ، والفكرة الموحدة عالم الحيوان والانسان) . الانسان ابداعي ، والشعور فيهِ غير محدود . اما الحيوان فهو عبد الميكانيكا ولكن الانسان سيد الميكانيكا . ومرجع ذلك في الانسان اللغة والهيئة الاجتماعية . تذخر الافكار

والجمود فيهما فيتبيان بهما الانسان من نوع النبات . فتركب الدماغ والهيئة الاجتماعية علاقات خارجية لسير الانسان عن الحيوان بهذا الاعتبار يكون الانسان غرض النشوء . والحياة تسير في المادة بقدر ما تمكنه . وواضح ان الطبيعة ليست لاجل الانسان . وهو مشترك في التلازم ضمن دائرة الطبيعة ، كغيره من الاحياء . فليس الانسان ميزان نشوء ، بل هو نهاية احد خطوطه . (لابرى برغسون النشوء صاعدا في خطوط لاحصر لها ، وليس في خط واحد صاعد من المادة الى الانسان . لا . بل ان المبدأ الاصلي ، او المحرك الاصلي انشعب الى شعاب ، وشعابه الى شعاب . وقد انقرض بعض تلك الخطوط وظل في استمراره البعض الآخر . ومن تلك الخطوط في العالم الحيواني خط الفقاريات وخط الحشرات . فرأس الخط الفقاري هو الانسان ورأس الحشرات طوائف النحل والنمل . فاحفظ ذلك)

***

الحياة امواج متراكزة فاذا صدها صاد صادمته كموجة . فما عجز من تلك الموجة يقف او تنهقر . وما تغلب على الحاجز فاز بالحرية . من الاول النبات والحيوان . ومن الثاني الانسان . وفيه وحده وصل الشعور الكوني تقدمه . هذا هو معنى النشوء . (اي النشوء الخالق)

وقد جيء الانسان العقل الى البديهة . وهما طرفا الشعور المنشعبان عنه . فالبديهة في شعبة الحياة — او في قالب الحياة — والعقل في شعبة المادة او في قالبها . والانسان السامي (السوبرمان) هو ما تساوى فيه العقل والبديهة ، وبلغا اسمى ارتفاع . تلك الانسانية فرقنا مراحل . وقد يوصلنا اليها نشوء آخر (غير نشوئنا الحالي الذي شغل مليون سنة في نقل الانسان من الحيوانية الى منزلته الحاضرة) . اما في حالتنا الحاضرة فالبديهة ضحية على مذبح العقل . وقد ضحى بها الشعور ليتمكن من التوغل في المادة ، وعلى ذاته . فتشكل هو بشكل عقل . وظلت البديهة حوله كسحابة حول بؤرة منيرة . تلك السحابة قائمة ، لكنها تنير حين تكون الانسانية مهددة

والبديهة حالة الفيلسوف المنشودة . وكما تقدمت الفلسفة ادركت ان البديهة عقل العقل فهي من العقل كالعقل من الغريزة . فهي حياة الحياة . وقد فصل العقل عنها على نحو تكوين المادة على هذي الصورة تدخلنا الفلسفة دائرة الحياة الروحية وترينا علاقة النفس بالجسد

لقد اصاب اصحاب النفس باصغائهم الى صوت الضمير . ولكن هنالك العقل ينادي بالعلة والمعلول واصابوا بايمانهم باليقينية . ولكن هنالك العلم يريهم اتحاد العقل والدماغ المتبادل ، كلٌ اخاه واصابوا في تمييزهم الانسان عن الحيوان . ولكن هنالك البيولوجيا تريهم تاريخ نشوء الانواع نشوءا تدريجيًا . ولكن اذا كان ثمة قوس فمن اين اتت ! وكيف اتصلت بالجسد تلك مسألة لاعجاب ! ويسئلونك عن الروح ، قل الروح من امر ربي...»